# منهج الجبرتي في حولية عجائب الآثار في التراجم والأخبار
# (نماذج مختارة)

**د. أسامه محمد أبو نحل**

**كلية الآداب والعلوم الإنسانية**

**جامعة الأزهر . غزة**

دورية علمية محكمة ترحب بتوجه
5/4

## مقدمة

لم تنشأ المكتبة التاريخية من فراغٍ أو عبث، فقد أولاها العرب والمسلمون الأُول الكثير من العناية والاهتمام، كي تكون النشأة سليمة خالية من الشوائب التي قد تَعَلَقْ بالأخبار التي تضُّمها؛ لذلك كان جُلَّ اهتمامهم بتأريخ الأحداث اعتماداً على الروايات بنوعيها الشفهية والمكتوبة، فأعطوا التاريخ قُدسيّة تُلائم مكانته لديهم.

والمكتبة التاريخية حافلة بذخائرَ لا حصرَ لها، تمَّ تأليفها منذ أمدٍ طويل، واستطاعت الأجيال المتلاحقة المحافظة عليها وتعهدتها الأيدي بالرعاية والاهتمام، ورغم وصول كم كبير منها من المجلدات والكُتب فإنه قد فُقدَ أيضاً الكثير من الكتب التي تركها الأجداد، إما بسبب الحروب التي التهمت كل ما وجدته في طريقها، أو بسبب الإهمال، فأدّى ذلك إلى تلفِها.

وكان دخول التتار لبغداد من أكبر الكوارث التي أُبتليت بها المكتبة التاريخية الإسلامية؛ إذ قام التتار بإغراق أعداد هائلة من المجلدات في نهري دجلة والفرات، إضافةً إلى نهب الاستعمار الغربي لعددٍ كبير من المخطوطاتِ النادرةِ من المكتباتِ الإسلامية الموجودة في القاهرة والقيروان ودمشق وغيرها من المكتبات.

وتنقسم المكتبة التاريخية إلى أقسام عدة مختلفة، لكنها تصبُّ في النهاية في خانةِ المعارف التاريخية، غير أن هذا البحث يتناول حولية خاصة بمصر حيث يوجد العديد من المصادر التي تحدثت في تاريخ مصر، التي إن جاز القول فهي المصادر المُختصّة بالشؤون المصرية.

والحولية التي سنتناولها بالبحث كُتبت على يد مؤرخ ثقة قدم الكثير لتاريخ مصر ورفع من شأنه بين الأمُم الأخرى، وهذه الحولية، هي عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي. وقد اشتملت الدراسة على تعريفٍ بالمؤلف ومؤلفاته، والشيوخ الذين درسَ عليهم، وسبب تأليفه للكتاب، إضافةً إلى المنهج الذي اتبعه في سرده للقضايا التي يحويها مؤلفه.وأهمية هذا الموضوع تعود في المقام الأول إلى إهمال المؤرخين المحدثين، في التأريخ للمؤرخين القدامى، هؤلاء الذين ما زلنا ننهل من مدوناتهم، مستفيدين مما دونوه في دراساتنا التاريخية، وعوضاً عن ذلك عكفوا على الدراسات التاريخية التقليدية، ولم يستفيدوا من الدراسات التي قام بها الرعيل الأول من الباحثين والمؤرخين في القرن العشرين الميلادي، عن هؤلاء المؤرخين القدامى، الذين هم بمثابة قبسٍ من نور نهتدي به في دراساتنا التاريخية.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة يعتمد في الأساس على التقصي والتحليل التاريخي لحياة هذا المؤرخ، مبينين أهم ما تميز به في سرده للأحداث التاريخية، وكذلك الأخطاء والأوهام التي وقع فيها وأثرت سلباً على أهمية حوليته، الأمر الذي سنظهره بين ثنايا الدراسة التي بين أيدينا. وقد اعتمدت هذه الدراسة أيضاً على عددٍ من المصادر والمراجع أهمها:

(1) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

(2) محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط1، دار الفكر، دمشق 1410هـ- (1990م).

خير الدين الزركلي: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. 8 أجزاء، ج3، ط10، دار العلم للملايين، بيروت 1992.

التاريخ الحولي:

(3) من المعلوم أن المؤرخين اتخذوا منهجين مختلفين في كيفية التعامل مع كتابة أحداث التاريخ، عُرف الأول بالمنهج الحولي حسب السنين، والثاني حسب الموضوعات. وفيما يخص المنهج الأول والذي يعنينا في دراستنا، فقد عمد المؤرخون في هذا المنهج إلى التأريخ للأحداث سنة بعد أخرى، بحيث تستقل كل سنة بأحداثها وتجمع فيها دون سواها من أحداث السنوات الأخرى أو حتى تكملة الحدث، الذي استمر في العام التالي، وإنما

تنتهي كتابة تكملة الحدث بعد انتهاء السنة، وعند التعرض للسنة التالية، يمكن له أن يعود لتكملة الحدث، ولكنه في كتابة أحداث كل سنة ينتهي فيها، ويتبعها بمقولة: "ثم دخلت سنة كذا".

ومن المآخذ التي أُخذت على هذه الطريقة، أنها كانت تمزق الحدث وسياقه التاريخي الطويل، الذي قد يمتد عدة سنوات، فلا يُذكر منه إلاَّ ما يخص السنة التي يتحدث عنها، ويجمع كل الأحداث التي وقعت فيها[1].

وقد انتقد البعض هذه الطريقة في التأريخ للأحداث، ومنهم المؤرخ الكبير علي بن محمد ابن الأثير، الذي عاش في الفترة ما بين سنة 555 – 630هـ، بقوله: "يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة، لا يحصل منها على غرض، ولا يفهم إلاَّ بعد إمعان نظر، فجمعت أنا الحادثة في موضوع واحد، وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض"[2].

والحقيقة أن المؤرخين العرب ليسوا هم أول من ابتكر كتابة التاريخ حسب المنهج الحولي، بل سبقهم أو عاصرهم الإغريق اليونان في كتابة هذا المنهج، كما أن الأدب السرياني قد استخدم المنهج نفسه، ورأى بعض الدارسين أن الكتابة الحولية انتقلت إلى العرب عن طريق السريان النصارى، ثم اطلاعهم فيما بعد على المصادر اليونانية مباشرة. والتطور الآخر للمنهج الحولي هو تقسيم كتابة التاريخ حسب القرون، وهو تطور آخر من السنين إلى العقود إلى القرون، ومن أمثلة المنهج الأخير، كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني، وكتاب "الضوء اللامع في رجال القرن التاسع" للسخاوي[3].

والحولية التي سوف نتناولها في هذه الدراسة، فهي تتبع نهج التأريخ لكل عام على حدة، وهي بعنوان: "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي.

**1–المؤلف:**

هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، مؤرخ مصر، ومُدوِّن وقائعها وسِير رجالها في عصره. وُلِد الجبرتي في القاهرة عام 1167هـ (1754م)، وتعلّم في الأزهر الشريف ، وعندما احتلَّ الفرنسيون مصر عام 1798م، بقيادة القائد الشهير نابليون بونابرت، جعله من كتبة الديوان، ثُمَّ تولى إفتاء الحنفية في عهد محمد علي باشا، حاكم مصر بعد فشل الحملة الفرنسية، وكان أبوه من علماء الأزهر الأجلاء الذين انتهت إليهم الرياسة في كثيرٍ من العلومِ السائدة في ذلك الوقت، كما كان على جانبٍ كبيرٍ من الثراء، وكان كذلك يمتلك بيوتٍ ثلاثة، أحدها بالصنادقية والثاني على النيل ببولاق والثالث بمصر القديمة[4].

وأسرة الجبرتي تشتهر بالعلم، وقد أخذت لقب الجبرتي من الجد السابع لها، واسمه عبد الرحمن أيضاً، وكان قد نزح من "جبرت" أحد أقاليم الزيلع بالحبشة، وأقام في مصر، وانتهت إليه رياسة رواق "جبرت" في الأزهر الشريف، وظلَّ هذا المنصب متوارثاً في نسله، حتى وصل إلى حفيده عبد الرحمن المشهور بالجبرتي.

وقد تفتحت عين الجبرتي على العلمِ منذ طفولته، حيث درجَ في رحاب الأزهر الشريف، ونشأ في بيئةٍ علمية خالصة، ومنحه الله الموهبة التي أهّلته للنبوغِ في كثيرٍ من العلوم والفنون، فإلى جانب الحلقات العلمية التي كان يحضرها في الأزهر كان يُقبِل على قراءة القصص وسماعها، ويشغف بعلومِ الفلك والرياضة، كما كان يستمع إلى ألوانٍ من الموسيقى والأغاني، وكان يلتقي بكثيرٍ من زوار أبيه من العلماءِ والشعراء والأُدباء والأمراء فيأنس إليهم، ويستفيد من علمهم وأدبهم وطُرفِهم[5].

وقد ورث الجبرتي عن أبيه مكتبة ضخمة نادرة تحوي الكثير من الكتب والتي كان يعزّ وجود أمثالها في كثيرٍ من الدورِ والقصور، وتوثقت الصلة بين الجبرتي وبين كثيرٍ من علماء عصرهِ البارزين، ولا سيما العالِم اليمني الشهير الأمام السيد مرتضى الزُبيدي، صاحب كتاب "تاج العروس" وكان قد قَدِمَ إلى مصر واستقرَّ فيها،

ولزمه الجبرتي واستفاد منه منهم مكانةً اجتماعية، كما إنه عندما كان في الحادية والعشرين من عمرهِ بعد أن توفي والده أخذ يتنقل في أنحاء مصر ليعرف مواقعها، وليتعرف على ألوان الحياة في القرى، وما يعانيه الفلاح من شظف العيش، إضافة لطبيعته الميَّالة للشهرة وحبه للرحلة، وقد ساعده على ذلك ثراؤه الواسع ورغبته في المعرفة والإطلاع، وقد كان هذا من أهم الأسباب التي دعته بل مكّنته من تأليف كتابه الكبير عجائب الآثار، فمما لا شك فيه أن إحاطة الجبرتي بكثير من أخبار مصر، وأخلاق سكانها جعله صادق الأحكام، دقيقاً في تحليل الأمور مستوعباً لكل صغيرة وكبيرة من حياة الشعب المصري في الفترة التي تناولها[6].

عاصر الجبرتي الحكم العثماني على مصر في الوقت، الذي تسلّط فيه المماليك على السلطة، وكان شاهد عيان على أهم الأحداث في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وأخطرها، متمثلاً في الاحتلال الفرنسي لمصر، وذلك في عام 1798م، وعيّنه القائد الفرنسي نابليون بونابرت عضواً في ديوان الأعيان، وهو الديوان الذي أنشأه الفرنسيون لحكم البلاد، وأتاحت له هذه العضوية الفرصة للإطلاع على كثيرٍ من الأسرارِ التي غابت عن كثيرٍ من الناس، وضمنها كتابه عجائب الآثار، كما عاصر فترة تولي محمد علي باشا لمقاليد الحكم في مصر فتمَّ تعينه مؤقتاً للصلاة ولرؤية هلال رمضان وهلال شوال[7].

2. مؤلفاته:

يمكن القول أن المؤرخين كافةً يعتبرون كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمن الجبرتي، واحداً من المصادر الأساسية لدراسة التاريخ الإسلامي في سيرته الطويلة عبر العصور بعد كتاب "تاريخ الأمم والملوك" لابن جرير الطبري، وكتاب "الكامل في التاريخ" لأبي الحسن عز الدين بن الأثير.

وللجبرتي عددٌ من الكتبِ التي ألفها، أهمها: "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وهو مُكونٌ من أربعةِ أجزاء والمعروف بتاريخ الجبرتي. وقد ابتدأه بحوادث سنة 1100هـ، وانتهى بحوادث سنة 1236هـ، وتمت ترجمته إلى اللغُةَ الفرنسية. وله من الكتبِ كذلك "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، وقد تُرجم أيضاً إلى اللغُةِ الفرنسية كما طُبِعَ بها، وكذلك تُرجِم إلى التركية[8]، وقد تناول الجبرتي في هذا الكتاب حكم الفرنسيين لمصر، وهذا الكتاب كان في الأساس عبارة عن مخطوطٍ له عدة نسخ، منها: نسختان بدار الكتب المصرية، نسخة في مجلد مخطوطة بقلم معتاد، بخط أحمد رزق، فرغ من كتابتها سنة 1293هـ، ورقمها 330 تاريخ.والنسخة الأخرى في مجلد مخطوطة بقلم معتاد تمَّت كتابته سنة 1224هـ، رقمها 101 تاريخ.

أما خارج مصر فتوجد عدة مخطوطات، منها: نسخة بخط المؤلف في مكتبة بايزيد بإستانبول بتركيا رقمها 76. ونسخة أخرى في مكتبة جار الله بإستانبول أيضاً رقمها 613. ونسخة في مكتبة بانكيبور (خدا بخش) رقمها 1055. ونسخة في كمبردج ببريطانيا (فهرست بيركهارت ص12، رقم 6). ونسخة في المتحف البريطاني بلندن (ملحق) برقم 571. ونسخة في مؤسسة بريل (مكتبة جامعة ليدن بهولندا – مجموعة هوتسما) رقم 187.

أما طبعات هذا الكتاب، فقد قام محمد عطا بنشر هذا المؤلف تحت عنوان: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس – "يوميات الجبرتي" في جزئين، ضمن مجموعة (اخترنا لك) في القاهرة سنة 1958[9].

وللجبرتي أيضاً مؤلف بعنوان "مدة الفرنسيس بمصر"، وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة ليدن بهولندا (مجموعة لندبرغ رقم 61)، كان المستشرق "موريه Moreh " قد أشار إليها في مقالٍ كتبه عن مجموعة من مخطوطات الجبرتي الأصلية. وتقع هذه المخطوطة في إحدى وخمسين صفحة، وتؤرخ لأحداث الشهور السبعة الأولى للحملة الفرنسية على مصر بشيء من الإسهاب والتفصيل من أوائل المحرم سنة 1213هـ، حتى نهاية رجب من السنة نفسها[10].

أما الكتاب الذي سوف نتناوله وهو "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، فيعد من أكبر أعمال الجبرتي ومن أعظمها شأناً، بل يعد من أعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلاديين).

ومخطوطات الكتاب فيوجد في دار الكتب المصرية إحدى عشرة مخطوطة، منها أربعة كاملة وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة. وفي المكتبة الأزهرية يوجد نسخة في أربعة مجلدات برقم (264) أباظة 6570، ونسخة أخرى في ثلاثة مجلدات بخط خليل بن إبراهيم العجوز سنة 1289هـ، برقم (584) 8537، ونسخة ثالثة في سبعة مجلدات برقم (1306) 21594. كما توجد عدة نسخ من مخطوط عجائب الآثار خارج مصر، في مكتبة المتحف العراقي، والهند، وروسيا، وألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا، وهولندا[11].

ونظراً لأهمية مخطوط عجائب الآثار، فقد تمَّ طباعته عدة مرات، كان أولها سنة 1295هـ/ 1878م، عندما قام أديب إسحق بنشر الجزء الثالث الذي كتبه الجبرتي عن الحملة الفرنسية مستقلاً بعنوان "تاريخ الفرنسيين في مصر" في جريدة مصر بالإسكندرية. وفي عام 1297هـ/1879–1880م، بعد تولي الخديوي توفيق عرش مصر، طُبع الكتاب لأول مرة بالمطبعة الأميرية ببولاق، وطُبع أولاً الجزءان الثالث والرابع، وفيه بعض من تاريخ محمد علي، ثمَّ تلاهما الجزءان الأول والثاني. وفيما بعد توالت طباعة الكتاب بصورة أفضل[12].

وتمَّت ترجمة عجائب الآثار لأهميته في الفكر العالمي إلى عدة لغات، منها الفرنسية بعدما تشكلت لجنة مكونة من شفيق منصور بك، وعبد العزيز كحيل بك، وجبرائيل نقولا، وإسكندر عمون أفندي، فترجموا الكتاب إلى الفرنسية ونشروه في تسعة أجزاء في المطبعة الأميرية، وذلك فيما بين عامي 1888م، و1896م، تحت عنوان: **Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman el-Djabarti.**

وترجم المستشرق أ.م. فيلتسنكي الجزء الأول من المجلد الثالث (1798 – 1801م) للغة الروسية سنة 1962م، وقد صدر عن معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتي، ونشرته دار النشر للآداب الشرقية بموسكو[13].

3. سبب تأليف الكتاب:

إذا كان المؤرخون السابقون على عصرِ الجبرتي قد ألّفوا مؤلفاتهم حُباً في البلدِ الذي عاشوا على أرضه ونعِموا من رغده . مصر . فإن الجبرتي لم يكن شاذاً عنهم، بل شاركهم هذه الخصوصية؛ لذا عمل على كتابةِ تاريخها ليربطِ تاريخ مصر في عصره فيما سبقه ليكون كلٌ لا يتجزّأ. ويُعدّ كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار من الكتب المهمة في تاريخ فترةٍ حساسة من تاريخ مصر في العصور الحديثة، ومن أعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة / الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، فقد شهدت هذه الفترة انحلال النظام العثماني المملوكي الذي قام في مصر منذ أنْ تمَّ فتحها على يد السلطان العثماني سليم الأول عام 923هـ (1517م)، ثُمَّ شهدت حكم الفرنسيين لها حوالي ثلاث سنوات (1798–1801م)، كما شهدت المحاولة المتواضعة للعثمانيين في إعادة حكمهم إلى مصر من جديد، ثُمَّ الإجهاز على هذا الحكم تماماً على يد محمد علي باشا، وكان هذا الإجهاز توطئةً لبناء نظام جديد في حكم مصر، والجدير بالذكر أن مصر في هذه الفترة كانت على مفترق الطرق في اتجاهها السياسي، ومن المعلومِ أن طبع هذا الكتاب قد حُرِّمَ أمداً طويلاً، ولهذا الكتاب قيمة اجتماعية كبيرة؛ لأنه صورة مُفصّلة لحياة أهل المشرق[14].

وثمة أهمية أخرى لهذا الكتاب هي عنايته بتراجمِ الآلاف من العلماء والأمراء والشيوخ والحكام والخطباء والشعراء والكُتّاب والأعيان والتجّار والنابهين الذين عاصرهم، وكان شاهد عيان عليهم، يرى ويسمع فيحلل ويكتب صورة صادقة لِما رآه، وتلك خدمةٌ أسداها الجبرتي إلى العلمِ والتاريخ، فقد اتسم العصر الذي نشأ فيه بقلة المهتمين بذلك، فلولا الجبرتي لأُغْفلت فترةٌ مهمة من تاريخِ مصر من معرفةِ من كان فيها من الأعلامِ

دورية علمية محكمة نصف سنوية 5/4

والنبهاء، كما شمِل كتابه بإيراد أسماء كثيرين من الباعة وأهل البدع وبعض أصحاب الطرق والمجذوبين... الخ. وبالإجمال، فإن الجبرتي قدّم من خلال كتابه هذا صورةً واضحة وصادقة عن أحوال كافة شرائح المجتمع المصري خلال فترة الحكم العثماني، ولقد طُبعَ هذا الكتاب أول مرة – كما أسلفنا سابقاً – بالمطبعةِ الأميرية بالقاهرةِ سنة 1297هـ. (1889م)، بعد أن صودِرت نسخة منه سابقة لهذا التاريخ وأُعدمت، وتمَّ طبعه بعد ذلك عدة مرات[15].

كما تنبع أهمية هذا الكتاب في تسجيل الجبرتي لأحداث الحملة الفرنسية وملاحظته القوية لآثارها وما أحدثته من تطورات نتيجة لوجود الفرنسيين الغربيين المسيحيين في مجتمع شرقي إسلامي له تقاليده المغايرة تماماً لتقاليدهم[16].

ويبدو أن المؤرخ الشامي محمد بن خليل المرادي، صاحب المؤلف المشهور بـ "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر"، هو الحافز الذي دعا الجبرتي لتأليف كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، فقد جمع الأخير مذكرات في أول الأمر عن الأحداث والأعلام في حياته إبان الحكم العثماني، وقبل مجيء الفرنسيين، ولكنه بدأ سنة (1220هـ/1805م) . (1221هـ/1806م) يكتب تاريخاً، والسؤال الذي يطرح نفسه، هو ما الذي دفع الجبرتي إلى تسجيل الحوادث أولاً ؟ ثم ما الذي دفعه إلى جمعها في سنة 1220هـ/1805م، وكتابتها بشكلٍ آخر منظم بعد سنة 1220هـ ؟، وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من ملاحظة علاقة الجبرتي بأستاذه مرتضى الزبيدي، وبمؤرخ الشام محمد بن خليل المرادي[17].

فكما أسلفنا الإشارة، ففكرة تأليف الجبرتي لكتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، جاءت من المرادي. فالأخير عندما كان مشغولاً بترجمة أعلام المائة الثانية عشرة، ولمَّا كانت هذه الدراسة تتطلب منه جُهْداً ضخماً، فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره؛ لذلك أرسل المرادي في سنة 1200هـ/1785م، إلى الشيخ أبي الفيض محمد مرتضى الزبيدي لمساعدته في جمع هذه التراجم، ولمَّا طلب المرادي من الزبيدي أن يساعده في جمع هذه التراجم، ولمَّا كان الزبيدي أستاذ الجبرتي، فقد دعاه في جمادى الثاني من عام 1203هـ/1788م، إلى الاشتراك معه في هذا العمل، وبدأ الجبرتي بالفعل بجمع تراجم لأعيان مصر في القرن الثاني عشر[18].

والجبرتي يؤكد هذا القول عندما يترجم للمرادي في كتابه، فيقول: " ... وكان هو (أي المرادي) السبب الأعظم الداعي لجمع هذا التاريخ على هذا النسق، فإنه كان قد راسل شيخنا السيد محمد مرتضى والتمس منه نحو ذلك، فأجابه لطلبته، ووعده بأمنيته، فعند ذلك تابعه بالمراسلات وأتحفه بالصلات المترادفات، وشرع شيخنا المرحوم في جمع المطلوب بمعونة الفقير (أي الجبرتي نفسه)، ولم يذكر السبب الحامل على ذلك، وجمع الحقير أيضاً ما تيسَّر جمعه وذهبت به يوماً وعنده بعض الشاميين (أي من أهل الشام)، فأطلعته عليه، فَسُرَّ بذلك كثيراً، وطارحني وطارحته في نحو ذلك بمسمعٍ من المجالس ..."[19]. ويبدو أن الشيخ الزبيدي لم يُطلع الجبرتي على الغاية من جمع هذه التراجم، وبلغ ما جمعه الزبيدي نحو عشرة كراريس تمَّ ترتيبها ترتيباً هجائياً، وأسماها "المعجم المختصر"[20]، وبعد وفاة الزبيدي باع ورثته مؤلفاته بما فيها "المعجم المختصر"، فاشتراها الجبرتي[21]، ووصل خبر وفاة الشيخ الزبيدي إلى مسامع المرادي، الذي عَلِمَ فيما بعد على ما يبدو أن الأوراق التي جمعها الزبيدي لدى الجبرتي، فأرسل له رسالةً وهدية مع السيد محمد التاجر القباقيبي، طالباً منه أن يردفه بما كان قد جمعه الزبيدي من تراجم وما جمعه الجبرتي نفسه أيضاً، وفي ذلك يقول الجبرتي: " ... وتنوسي (تمَّ نسيان) هذا الأمر شهوراً (أي بعد وفاة الزبيدي)، ووصل نعي السيد إلى المترجم (أي المرادي) والصورة الواقعة، وكانت أوراق السيد مختوماً عليها فعند ذلك أرسل إليَّ كتاباً وقرنه بهدية على يد السيد محمد التاجر القباقيبي، يستدعي تحصيل ما جمعه السيد من أوراقه وضم ما جمعه الفقير (أي الجبرتي) وما تيسّر ضمه أيضاً وإرساله ..."[22].

والواضح أن الجبرتي أيقن من رسالة المرادي إليه، أن السبب الذي دفع أستاذه الزبيدي إلى الاهتمام بترجمة أعلام القرن الثاني عشر، كان نزولاً عند رغبة المرادي مفتي الشام، ولم يكن مبادرةً شخصية منه[23].

4. المنهج الذي اتبعه الجبرتي

ينتمي عبد الرحمن الجبرتي إلى طائفة المؤرخين المسلمين من كتّاب الحوليات، الذين تركوا لنا تراثاً ينمُّ عن مناهجهم، وأساليب تفكيرهم، ومستوى ثقافتهم. ولا يختلف اثنان على أن الجبرتي عاش في الوقت الذي خيّم فيه الركود على المنطقة العربية، وسجّل في كتابه "عجائب الآثار" تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وقدّم من خلاله صورة عن مصر لا تختلف في خطوطها العريضة عن صورة الحياة في أية بلدٍ عربي آخر؛ لأن المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات تكاد تكون واحدة، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة. يُضاف إلى ذلك أن العالمين العربي والإسلامي خلال الفترة التي دوَّنها الجبرتي كانا يمران بمرحلة اضمحلال عامة، نتيجة لظروف تاريخية واقتصادية وسياسية معروفة[24].

ونتيجة لتلك الظروف، فُسح المجال للاهتمام بالشكليات وبظواهر العلم، فأصبح المجتمع العربي الإسلامي بوجه عام مستكيناً لحالة تبلد مقرون بالغيبيات الباعثة على السلبية، ولا يُلقي بالاً للإشعاعات المنبعثة من أوروبا. وكان حيّز الدراسات في الجامع الأزهر الذي تخرج منه الجبرتي ضيقاً نسبياً؛ نظراً لاقتصاره على العلوم المتصلة باللغة العربية، بما في ذلك البلاغة والنثر والعلوم الدينية والفقه والمنطق ومبادئ الرياضيات.ولمّا كان العالم العربي والإسلامي خلال فترة الركود والعزلة يكاد يكون منقطع الصلة بأوروبا الغربية، فإنه حافظ على ما سُمي بالمشخصات الوسيطة التي كانت في طريقها إلى الانحلال في الغرب، كالاعتقاد في التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر. ويبدو أن الأساليب الشعبية والشعوذة التي كان يمارسها المتصوفة قد ساعدت على شدة انتشار السحر، وبالتالي أدى ذلك إلى إسكات كل أصوات النقد والمعارضة، وبالتالي كان من الطبيعي أن تتدهور الكتابة التاريخية، خاصة وأن معاصري الجبرتي كانوا يعتبرون التاريخ من شغل البطّالين، وأساطير الأولين[25].

وللجبرتي في عجائب الآثار مفهوم خاص للتاريخ، ففي المقدمة النظرية التي كتبها ينطلق فيها من اليقين بأن الإنسان حيوان اجتماعي، فيقول: "اعلم أن الإنسان من حيث الصورة التخطيطية كصورةٍ في جدار، وإنما فضيلته بالنطق والعِلمْ؛ ولهذا قيل ما الإنسان لولا اللسان إلاَّ بهيمة مهملة أو صورة ممثلة، فبقوة العلم والنطق والفهم يضارع الملك، وبقوة الأكل والشرب والنكاح والغضب يشبه الحيوان، فمن صرف همته كلها إلى تربية القوة الفكرية بالعلم والعمل، فقد لحق بأفق الملك فيسمى ملكاً ربانياً .... ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوانية بإتباع اللذات البدنية، يأكل كما تأكل الأنعام، فحقيق أن يلحق بالبهائم إما غمراً كثور أو شرهاً كخنزير أو عقور ككلب أو حقوداً كجمل أو متكبراً كنمراً أو ذا حيلة ومكر كثعلب أو بجميع ذلك كله فيصير كشيطان مريد ..."[26].

وموضوع التاريخ عند الجبرتي هو أحوال المجتمع، فيقول: "اعلم أن التاريخ علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم"[27]. غير أنه يحفظ للشخصيات البارزة مكانها في هذا الموضوع مثل "الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم"[28].

والغرض من التاريخ عند الجبرتي هو: "الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت"، والفائدة منه: "العبرة بتلك الأحوال، والتنصّح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار أفعالهم، ويتجنب سوء أقوالهم، ويزهد في الفاني، ويجتهد في طلب الباقي"[29].

بالتالي، فعلم التاريخ عند الجبرتي فيه عِبر، وله مسار، فمن عرفه فقد أمِن شر الوقوع في أسر الفناء، وهذا المسار ليس عشوائياً، وليس مجرد عِبرة ترتبط بكل حادث على حدة، كما قد يبدو للنظرة المتعجلة في نصوص الجبرتي، ولكنه مسار يخضع لقوانين كلية ولحتمية مسبقة ترتبط فيها السباب بالنتائج، والعلة بالمعلول، لكن هذه الأسباب ليست دنيوية إلاَّ بمقدار خضوعها للناموس الإلهي الذي حدد كل شيء سلفاً، ولذلك فحركة التاريخ لدى الجبرتي تتجه إلى تحقيق العدل؛ لذا "فإن العدالة الحقيقية ليست إلاَّ لله تعالى فهو العادل الحقيقي،

دورية علمية محكمة نصف سنوية 5/4

الذي لا يعزب عنه مثقال [illegible] وامره ونواهيه، وإلاَّ فإن نظام حياته الاجتماعية سوف يختل، فالله سبحانه وتعالى هو "الذي جعل لكل شيء قدراً، لو فرض فارض زائداً عليه أو ناقصاً عنه، لم ينتظم الوجود على هذا النظام بهذا التمام والكمال"[30].

وللجبرتي منهجية خاصة في كتابة التاريخ، بالإمكان ملاحظتها في ثلاث نواحٍ:

الأولى – في المصادر: فالجبرتي كان على دراية تامة بمعظم كتب مؤرخي مصر العظام وغيرهم الذين سبقوه، فقد أورد في مقدمة كتابه قائمة بأسمائهم ومؤلفاتهم، فأشار للطبري والمسعودي وابن الأثير وابن الجوزي وابن خلكان والسيوطي والذهبي والعيني وغيرهم[31]، كما كان له من وضعه الاجتماعي وثقافته واتصالاته الشخصية أكبر معين لتسجيل تاريخه، خاصةً في السنوات التي عاشها، ويبدو أن مهمة الجبرتي لم تكن هينة، وفي ذلك قال: "فإنَّا لم نرَ من ذلك كله (أي كتب التاريخ) إلاّ بعض أجزاء مدشتة (متناثرة) بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس، مما تداولته أيدي الصحّافين، وباعها القومة والمباشرون، ونُقلت إلى بلاد المغرب والسودان، ثمَّ ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم"[32].

ويتضح لنا من النص السابق، أن الجبرتي افتقد المصادر التاريخية التي تعينه على الكتابة بسبب تسربها أو تناثرها في بعض المكتبات، ويُضاف إلى ذلك كله أن كثرة الفتن والصراعات بين المماليك فيما بينهم، أو بينهم وبين العثمانيين أدّت إلى ضياع الكثير منها، إضافة إلى ما أخذه الفرنسيون معهم إلى بلادهم.

وفي بداية الجزء الأول من عجائب الآثار نجد الجبرتي متحفظاً إلى حدٍ بعيد فيما يتعلق بمصادر الفترات الأولى من الحكم العثماني لمصر، فلم يُشر إلى ابن إياس وكتابه بدائع الزهور، ولا لابن زنبل في كتابه تاريخ مصر باعتبارهم مؤرخين ثقات عن الفتح العثماني لمصر، فوصفه للأحداث التي سبقت الفتح العثماني كانت بسيطة ومن القِصر بحيث لا يمكننا أن نتحقق من المصادر التي اعتمد عليها، خاصة أنه لم يُشر إليها، ما يدفعنا للاعتقاد بأن الجبرتي لم يكن مهتماً بالتاريخ الإسلامي والتاريخ المصري السابق للفترة العثمانية، وبالتالي لم يطّلع على كتابات من سبقوه عن هذه الفترة.

والأكثر من ذلك، أنه لم يطّلع على كتابات الكثيرين من المؤرخين في العهد العثماني نفسه، فالجبرتي لم يذكر سوى أحمد جلبي عبد الغني، الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى سنة 1150هـ، واعتمد عليه في الفترة السابقة للقرن الثاني عشر الهجري. ويبدو أن الجبرتي بدءاً من سنة 1100هـ، وحتى سنة 1170هـ، بدأ يعتمد في كتاباته على ما يمكن تسميته بالمصادر الحية، بعدما أخذ ينقل عن والده وأساتذته وأصدقائه من الشيوخ المعمّرين، وفي ذلك يقول الجبرتي: "فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة (الشيوخ) المسنين، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين، وما انتقش (نُقِشَ) على أحجار تُرب (مقابر) المقبورين، وذلك من أول القرن إلى السبعين وما بعدها إلى التسعين"[33].

الثانية – في طريقة التأليف وتنظيم المادة: فالجبرتي في تأليفه اعتمد على عمليتين اثنتين، هما جمع المادة وتنظيمها.

أما جمع المادة فكان يتم على طريقتين:

1- التقميش: أي اختيار المادة وانتقاؤها، فهو يلخص المنهج الذي اتبعه في تراجمه وتواريخه بقوله: "إني كنت سودت أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه وأوائل الثالث عشر الذي نحن فيه، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية، وأخرى محققة تفصيلية، وغالبها ممن أدركناها، وأمور شاهدناها، واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها، ومن أفواه الشيخة (الشيوخ) تلقيتها وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين، وذكر لمعٍ من أخبارهم وأحوالهم، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم"[34].

2- التعليق: وهو التسجيل [illegible] وقد اعتمد الجبرتي على ذاكرته بشكلٍ محدود، لكنه بشكل عام كان يسجل ما يعرف أو يسمع من تعليقات بما يشبه المسودات، ثم يعيد تنظيمها وضبطها في مواضعها، والحقيقة فإن الجبرتي في كتابه قليل التعليقات. ومع قلة تعليقاته وندرتها، فهذه التعليقات كفيلة بالكشف عن وجهة نظره إذا ما تمَّ رصدها بشكلٍ دقيق وقورنت بغيرها، وتمَّ ربطها بالحدث التي تتلوه، فالجبرتي عندما نسّق كتابه زوده بمقدمة شبه نظرية حاول من خلالها أن يقدم مفهومه للتاريخ، ورأيه في العوامل التي تحكم سير المجتمع الإنساني.

ومن التعليقات القليلة التي أوردها الجبرتي في كتابه، ما قاله عما حدث بمصر بعد وفاة أميرها محمد بك أبو الذهب المملوكي، وتنازع أتباعه على السلطة، متناولاً تلك الفترة بالتحليل: "... وتآمر أتباعه وتقاسموا البلاد فيما بينهم ... واستولى عليهم الطمع والتفاخر والتنافس والتغاضي خوف الفشل وتفرّق الكلمة مع الانحراف عن الأوضاع، ظهر الخلل في كل شيء حتى في الأمور الموجبة لنظام دولتهم، وإقامة ناموسهم"[35].

أما محمد بك أبو الذهب فقد قال عنه: "كان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعداً وحزماً وعزماً وحكماً وسماحة وحلماً، وكان قريباً للخير، يحب العلماء والصلحاء (المصلحين)، ويميل بطبعه إليهم ويعتقد فيهم، ويعظمهم وينصت لكلامهم، ويعطيهم العطايا الجزيلة، ويكره المخالفين للدين، ولم يشتهر عنه شيء من الموبقات والمحرمات ... ولولا ما فعله آخراً من الإسراف في قتل أهل يافا بإشارة وزرائه لكانت حسناته أكثر من سيآته (سيئاته)"[36].

ومن المعلوم تاريخياً أن محمد بك أبا الذهب كان مملوكاً لعلي بك الكبير شيخ البلد في مصر، ورئيساً لجماعة مماليكه وأشهرهم، حتى صار سيف دولته وساعدها، وكان علي بك قد أرسله في عدة حروب انتصر فيها، مما زاد من إعجابه به، فزوجه من أخته، غير أن أبا الذهب كان يفكر ويدبر في صمت بكيفية ضرب وتدمير الرجل الذي أحسن إليه، وتلك صفات مغايرة تماماً للصفات التي ذكرها الجبرتي. وحاول أبو الذهب عدة مرات التخلص من سيده، منها طلبه من زوجته وضع السُّمَّ في القهوة لأخيها عند زيارته لها، إلاَّ أنها أخبرت أخيها بما خططه زوجها، فلم يصدقها لحبه الأعمى لأبي الذهب، بل وضع كل ثقته به وولاه القيادة العليا للجيش، ولم يكن يتخيل أو يتصور أنه سيقتله يوماً ما. ففيما بعد كشر أبو الذهب عن أنيابه وكشف عن نواياه الحقيقية تجاه سيده، وذلك عندما ولى علي بك الكبير صهره وتلميذه أبو الذهب على رأس الحملة التي وجهها للاستيلاء على دمشق، فأثناء وجود أبي الذهب في دمشق بعد الاستيلاء عليها اتفق مع الدولة العثمانية ضد سيده على الانسحاب والعودة إلى مصر مقابل تعينه شيخاً للبلد عوضاً عن علي بك، ومن ثمَّ فرار علي بك إلى عكا عند حليفه الشيخ ظاهر العمر، وما رتب على ذلك من اقناع أبي الذهب لعلي بك بالعودة إلى مصر وقتله[37].

وعندما حاول محمد بك أبو الذهب التخلص من حكم الشيخ ظاهر العمر عام 1775م، ارتكب العديد من الفظائع التي يندى لها الجبين، وهي سمة تتقاطع جذرياً مع السمات التي ذكرها الجبرتي بحق أبي الذهب، منها المذبحة التي ارتكبها بحق أهالي مدينة يافا، لدرجة جعلت الرحّالة الفرنسي فولني الذي زار المنطقة يقول: "ولقد صورت الأهرامات التي بُنيت من رؤوس القتلى على أنها نُصب للنصر رفعه محمد بك ليرمز إلى وحشيته، حيث تجاوزت أعداد تلك الرؤوس الألف ومائتي رأس"[38]. حتى الجبرتي نفسه يناقض في صفات أبي الذهب، خاصةً فيما يتعلق بمذبحة يافا فيقول: "... وقبضوا على أهلها وربطوهم في الحبال والجنازير، وسبوا النساء والصبيان، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثمَّ جمعوا الأسرى خارج البلد ودوروا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم ...وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ..."[39]. وهذا الأمر يتناقض تماماً مع ما سبق وأعلنه الجبرتي عن أبي الذهب من كرهه المخالفين للدين، ولم يشتهر عنه شيء من الموبقات والمحرمات، فما قام به في يافا مخالف للدين من جهة، ومن أعظم المحرمات من جهة أخرى.

دورية علمية محكمة نصف سنوية
5/4

**الثالثة – تنظيم المادة التاريخية:** فالجبرتي سار في على الطريقة الحولية المعروفة، بمعنى كتابة أحداث السنة مرتبة حسب الشهور والأيام، وعند الانتهاء من أحداث سنة ينتقل إلى السنة التي تليها متبعاً نفس الأسلوب. ومن خلال سرده للأحداث يسجل أسماء الوزراء والباشاوات ووقت حضورهم للقاهرة لتسلم مناصبهم، ومدة إقامتهم في مصر، والأحداث التي جرت في عهدهم، وعند عزل الباشا يذكر ذلك ضمن أحداث العام الذي يدوّن أحداثه، كما يقوم بذكر تراجم من توفي من العظماء في كل عام، وهذا يسري على كل أجزاء الكتاب. فضلاً عن حرصه البالغ دوماً في تقديم تراجم من يتوفى من العلماء على تراجم الأمراء مهما علا شأنهم.

وندلل على ذلك بما أورده الجبرتي في عجائب الآثار، ففيما يخص انتقاله من عام إلى آخر، وتولية باشا جديد لمصر يقول: "وهي سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف، وذلك عند وصول رجب باشا إلى العريش، ثمَّ حضر رجب باشا إلى مصر وعملوا له الشنك والموكب على العادة ..."[40].

وفيما يخص ذكره للوفيات وتقديمه العلماء عن الأمراء يقول: "وأولهم الإمام العلاَّمة، والحبر الفهامة، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم سيد المرسلين، الشيخ محمد الخرشي المالكي، شارح خليل وغيره ... توفي سنة إحدى ومائة وألف"[41].

ويجب علينا بادئ ذا بدء الإقرار بأن الجبرتي لم يُسطّر كتابه هذا من أجل غرض دنيوي محض، أو لمجاراة أولي الأمر من الحكام والأمراء، وقد أكّد الجبرتي ذلك في مقدمة كتابه بالقول: "ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير، ولم أُداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، لميلٍ نفساني أو غرض جسماني، وأنا استغفر الله من وصفي طريقاً لم أسلكه وتجارتي برأس مالٍ لم أملكه"[42].

وفي ذلك يقول الجبرتي أيضاً:

كَمَنْ يَحْدُو وَلَيْسَ لَهُ بَعير     وَمنْ يَرْعَىَ وَليسَ لهُ سوامْ

وَمنْ يسقي وَقَهوته سراب     وَمنْ يَدعُو وَليسَ لهُ طَعَامْ[43]

ويتميز منهج الجبرتي عن مناهج المؤرخين السابقين له في التأريخ لمصر؛ بأنه لم يسر على نمطهم في الاعتماد على الروايةِ، بل نجده يُعطي لمحةً سريعةً في بدايةِ مؤلفه عن ذكر أول خليفة في الأرض، وفي ذلك يقول الجبرتي: "أول خليفة جُعِل في الأرض آدم عليه الصلاة والسلام بمصداق قوله تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة". ثُمَّ توالت الرُسل بعده لكنها لم تكن عامة الرسالة بل كان رسولٌ أُرسل إلى فرقةٍ. فهؤلاء الرُسل عليهم السلام مقررين شرائع الله بين عباده وملزموهم بتوحيده، وامتثال أوامره....إلى أن جاء ختامهم الرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله..."[44].

ثُمَّ يتحدث الجبرتي بعد ذلك عن أسماء الملوك والسلاطين الذين تولوا حكم مصر بعد ضعف الدولة العباسية، فالدولة الأيوبية، ثُمَّ سلاطين المماليك بعباراتٍ موجزة، وعن السلاطين الذين حكموا مصر بعد الدولة العباسية، يقول الجبرتي: "إلى أن ضعُفت الخلافة العباسية بعد قتل المتوكل بن المعتصم بن الرشيد سنة سبعٍ وأربعين ومائتين وتغلّب على النواحي كل متملّك لها فأنفرد أحمد بن طولون بمملكة مصر والشام، وكذلك أولاده من بعده، ثُمَّ دولة الإخشيد وبعده كافور أبو المسك ممدوح المتنبي..."[45]. يبدأ الجبرتي مرحلة التأريخ لمصر على نمطِ التأريخ الحولي ابتداءً من عام 1106هـ. التي تحدث فيها عن المجرياتِ التي دارت في مصر، وعن ذلك يقول: "وقصر النيل تلك السنة وهبط بسرعة فشرقت الأرض ووقع الغلاء والفناء. وفي شهر الحجة سافر أُناس من مكة إلى دار السلطنة وشكوا من ظلم الشريف سعد، فعُين إليه محمد بيك نائب جدّة وإسماعيل باشا نائب الشام..."[46].

ويستمر الجبرتي في سرد [illegible] ار فيها وخاصةً نزول أمطار كثيرة على مصر بحيث ترتب عليها السيول، وفي ذلك يقول الجبرتي: "وفي تلك السنة أعني سنة إحدى وسبعين ومائة وألف نزل مطر كثير سالت منه السيول "[47].

وتضمّن الجزءِ الثاني من كتاب عجائب الآثار للجبرتي في غالبيةِ صفحاته أخبار وتراجم من ماتوا خلال السنين التي تحدث عنها الجبرتي في هذا الجزء، يقول الجبرتي في أحداث عام 1210هـ، عمن ماتوا فيها: "لم يقع بها شيء من الحوادث التي يُعتنى بتقييدها سِوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم.... (و) مات بها الإمام العلاّمة المُفيد الفهّامة عُمدة المحققين والمدققين الصالح الورع المُهذب عبد الرحمن النحراوي الأجهوري الشهير بمقري الشيخ عطية خدم العلم، وحضر فُضلاء الوقت، ودرس وتمهّر في المعقول والمنقول، ولازم الشيخ عطية الأجهوري مُلازمة كلية، وأعاد الدروس بين يديه، واشتهر بالمقرئ وبالأجهوري لشدة نسبته إلى الشيخ المذكور..."[48].

أما الجزآن الثالث والرابع من مؤلف الجبرتي؛ فإنهما يتضمان أحداث أهم حقبة زمنية مرّت بها مصر في العصرِ الحديث ابتداءً من احتلال الفرنسيين للإسكندرية، ومن ثمَّ القاهرة وما تلا ذلك من تولي محمد علي باشا لزمام السلطة في مصر، فعن احتلال الفرنسيين عام 1213هـ، لمصر يقول الجبرتي: "فلمَّا كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور؛ بأن في يوم الاثنين ثامن عشره (أي شهر المُحرم) وردت مراكب وعمارات للفرنسيس (للفرنسيين) كثيرة، فأرسوا في البحر، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلمَّا نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلمَّا دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلاَّ وهم كالجراد المنتشر حول البلد..."[49].

ويستمر الجبرتي في الحديث عن الفرنسيين وما صنعوه في القاهرة ومصر، فيذكر ما هدمه الفرنسيون وما خربوه، وكذلك ما أحدثوه من عمائر، وذلك في عام 1215هـ، يقول: "توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم. وعمَّ الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي، فهدموا تلك الأخطاط (الخطط) والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا..."[50]. وفي هذا الجزء من المؤلف تحدث الجبرتي عن تبرجِ النساء الفرنسيات عند خروجهن إلى الشوارعِ، فقال: "ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لمَّا حضر الفرنسيس (الفرنسيون) إلى مصر ومع البعض منهن نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات[51] والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطُرح الكشميري والمزرقشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة[52]"[53].

ويستمر الجبرتي على هذا المنوال حتى عام 1236هـ، وهي آخر سنة يؤرخ فيها، حيث يتحدث فيها عمَّا حدث بعد حملة إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا على الحجاز؛ إذ إنه في هذا العام يقول الجبرتي: "في ثالثه (شهر شوال) حضرت هجّانة من أراضي نجد وبصحبتهم أشخاص من كبار الوهابية مقيدون على الجِمال وهم عمر بن عبد العزيز وأبناء عمه وذلك أنهم لمَّا رجعوا إلى الدرعيّة بعد رحيل إبراهيم باشا وعساكره وكان معهم مشاري بن مسعود..."[54]. ويُلاحظ من خلال قراءة كتاب عجائب الآثار إكثار الجبرتي من إيراد الأبيات الشعرية نقلاً عن غيره أو من نظمه هو، فنجده يقول نقلاً عن غيره في فضل التاريخ:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى     توهمته قد عاش من أوّلِ الدهرِ
وتحسبه قد عاش آخر دهره     إلى الحشران أبقى الجميل من الذكرِ
فكن عالماً أخبار من عاش وانقضى     وكن ذا نوال واغتنم آخر العمرِ[55]

ويقول الجبرتي في موضعٍ [illegible] باشا، وذلك على لسان الشيخ حسن الحجازي:

مصر قد حلَّ بها واعظٌ          عن منهجِ صدقٍ قد أعرض

أبدى جهلاً فيها قولاً          منه الحُبلى حـالاً تجهض [56]

ورغم دقة الجبرتي في تدوين الحوادث، لم يكن أسلوبه يسير على نسقٍ واحد، بل كان مصرياً عامياً، لديه الكثير من الأغلاط في المفردات وفي العبارة، ويعترف الجبرتي في مقدمة كتابه، بقصور باعه في قوانين المعاني العربية، وفي ذلك يقول: "هذا مع اعترافي بقصور الباع وفتور الطباع في قوانين المعاني العربية ودواوين المثاني الأدبية"[57]. وفي ذلك قال الجبرتي أيضاً:

مالي وللأمرِ الذي قلّدتهُ          مَا للذُبَاب وَطعمة العنقاء

أَبكي لِعجزي وَهو يبكي ذِلة          شَتّانَ بينَ بُكَائه وَبُكَائي[58]

ورغم عدم التزام الجبرتي بالسجع، إلاَّ أنه كان يتفصّح به أحياناً في غير موضعه، مما يعدُّ من عيوب كتابه عجائب الآثار، فقد اعتمد على العباراتِ السجعية، كما في قوله: "الحمد لله القديم الأوّل الذي لا يزول ملكه ولا يتحوّل، خالق الخلائق، وعالم الذرات بالحقائق، مُفني الأمم، ومُحيي الرمم، ومُعيد النِعم، ومُبيد النقم، وكاشف الغمم، وصاحب الجود والكرم..."[59].

ويقول في موضعٍ آخر: "اعلم أن الله تعالى لمَّا خلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وبثَّ فيها من كلِ دابةٍ وقدَّر أقواتها، أحوج بعض الناس إلى بعضٍ في ترتيب معايشهم ومآكلهم وتحصيل ملابسهم ومساكنهم لأنهم ليسوا كسائر الحيوانات التي تُحصّل ما تحتاج إليه بغير صنعة... "[60].

والجبرتي في مؤلفه هذا لا يعتمد على نهج الرواية كما حدث في بعض مؤلفات المؤرخين القُدامى، وكان الجبرتي قد تعرَّض لبعضِ المحن التي أثرت في حياته، أهمها اغتيال ابنه "خليل". وكان الجبرتي قد تقدَّم في العمرِ ووهن عظمه فحزن عليه حُزناً شديداً أسلمه إلى اليأس الشديد والانقطاع عن الكتابة والتأليف، وظلَّ كذلك حتى وافته المنية في القاهرة بحي شُبرا مخنوقاً وذلك في عام 1241هـ (1825م)[61].

بقيت الإشارة، إلى أن الجبرتي مثَّل الحلقة الأخيرة في كتابة التاريخ بالطريقة، التي درج عليها المؤرخون المسلمون في العصور التي سبقت فتح العثمانيين للشام ومصر، آخذين بعين الاعتبار حالة الركود والجمود الثقافي الذي عانت منه مصر في العصر العثماني وانعكاساته على كتابات الجبرتي نفسه. ومن المفيد الإشارة إلى أن أهمية كتاب الجبرتي تنبع من كونها المصدر الوحيد الذي كتب عن تاريخ مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فالجبرتي يُعدّ أول مؤرخ مصري ظهر بعد ابن إياس، بعد أن خلت مصر من المؤرخين الكبار ما يقرب من ثلاثة قرون.

ومما يُحسب للجبرتي أنه كان آخر من كتب الحوليات في مصر بشكلها التقليدي، ومما يُحسب له أيضاً، أنه لولا كتاباته تلك لخُفي عن المؤرخين والباحثين اللاحقون له أمور كثيرة من تاريخ مصر العثماني، بما في ذلك فترة الاحتلال الفرنسي لمصر، وفترة لا بأس بها من حكم محمد علي باشا، وسوف يظل عجائب الآثار من المصادر المهمة والرئيسية لتاريخ مصر في القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر – كما أسلفنا الإشارة، فعجائب الآثار كمادةٍ تاريخية، يعتبر ثروة لا تُقدّر بثمن في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية لتاريخ مصر الحديث.

دورية علمية محكمة نصف سنوية 5/4

بعد الانتهاء من سرد المنهج الذي سار عليه عبد الرحمن الذي أرّخ لمصر، بالإمكان استنتاج أمور عدة، أهمها أن أصوله غير مصريةٍ عاش على ثرى مصر وعشِقها، فأرخ لها بأمانةٍ وإخلاص نابع من حبه ووده لهذا القُطر ـ مصر.

كما سار على نهجٍ واحد هو التأريخ على نسق الحوليات كوسيلةٍ لكي يصل بمقتضاها إلى غايته التي بدت واضحة من خلال قراءة كتابه، وهي حبه لبلده الذي أرّخ له ـ مصر، وقد ساعده على ذلك النزعة المحلية التي بدت جلية في أسلوبه وتعبيره؛ إذ خصص أحداث كتابه لِما حدث في مصر خلال فترة تأريخه لتلك الأحداث، وكانت هذه النزعة واضحة وبارزة في منهجه.

ولم يقع الجبرتي في خطأ تمزيق روايته وذكر أحداثها مُقطَّعة، خلال سرده لحادثةٍ معينة استمرت عدة سنوات ، بل كان يؤرخ للحدث دفعةً واحدة وهو بذلك يهدِف إلى جعل الحدث مرتبطاً مكتملاً غير ممزق الأوصال. ولم يعتمد الجبرتي على الرواية الطويلة إلاَّ قليلاً، كما لم يعتمد على النقل عن الآخرين.

وتميز الجبرتي بعدم إيرادِه للأحاديث الأسطورية عن بدء الخليقة وخلافه، كما اعتمد على إيراد الأبيات الشعرية التاريخية سواء من نظمه أم نقلاً عن الآخرين، وكان كثير الإيراد للشعر، إلاَّ أنه يُعاب عليه اعتماده على العبارات السجعية في غير موضعها.

ويُعاب على الجبرتي، أنه لم يطلع على كتابات الكثيرين من المؤرخين في العهد العثماني نفسه، فهو لم يذكر سوى أحمد جلبي عبد الغني، الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى سنة 1150هـ.، وإعتمد عليه في الفترة السابقة للقرن الثاني عشر الهجري. ويبدو أن الجبرتي بدءاً من سنة 1100هـ، وحتى سنة 1170هـ، بدأ يعتمد في كتاباته على ما يمكن تسميته بالمصادر الحية، بعدما أخذ ينقل عن والده وأساتذته وأصدقائه من الشيوخ المعمرين.

وكان الجبرتي قليل التعليق على الأحداث التاريخية التي أوردها، ومع ذلك فهذه التعليقات كانت كفيلة بالكشف عن وجهة نظره إذا ما تمَّ رصدها بشكلٍ دقيق وقورنت بغيرها، وتمَّ ربطها بالحدث التي تتلوه.

(1) الحلواني، سعد بدير: تأريخ التاريخ. مدخل إلى علم التاريخ ومناهج البحث فيه. ط2، أبها 1420هـ (1999م)، ص98-99.

(2) ابن الأثير، علي بن محمد: الكامل في التاريخ. ج1، دار صادر، بيروت 1982، ص5.

(3) روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983، ص121.

(4) الجبرتي، عبد الرحمن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ج1، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، بدون تاريخ، تقديم الكتاب، ص2، وعبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. تحقيق: وشرح: حسن محمد جوهر وآخرين، ط1، ج1، لجنة البيان العربي، القاهرة 1958، ص4.

(5) الجبرتي: مطبعة الأنوار المحمدية، ص2.

(6) المرجع السابق، ج1، ص2-3.

(7) المرجع السابق، ص3.

(8) الزركلي، خير الدين: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. 8 أجزاء، ج3، ط10، دار العلم للملايين، بيروت 1992، ص304. والجبرتي: المرجع السابق، ونفس الصفحة.

(9) عاصي، حسين: عبد الرحمن الجبرتي. مؤرخ الصدام الحضاري الأول بين الشرق والغرب في العصر الحديث. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ (1993م)، ص 57-58.

(10) المرجع السابق، ص53-54.

(11) لمزيد من التفاصيل: أنظر:المرجع السابق، ص70-74.

(12) لمزيد من التفاصيل: أنظر:المرجع السابق، ص74-76.

(13) المرجع السابق، ص76-77.

(14) الجبرتي: نفس الصفحة، عبد الكريم، أحمد عزت (مشرف): عبد الرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1976، ص20.

(15) الجبرتي: ص4.

(16) عاصي: المرجع السابق، ص78.

(17) أنيس، محمد: مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني. إصدار معهد الدراسات العربية، القاهرة 1962، ص32. والحسيني، حسن بن عبد اللطيف: تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق وتقديم: سلامة صالح النعيمات، عمان 1985، مقدمة المحقق، ص116-117.

(18) البيطار، عبد الرازق: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج3، تحقيق: محمد بهجت البيطار، مجمع اللغة العربية، دمشق 1961، ص1403.

(19) الجبرتي: المرجع السابق، ج2، ص350.

(20) أنيس: المرجع السابق، ص34.

(21) أنظر: ترجمة الشيخ الزبيدي في الجبرتي: المرجع السابق، ص288-312، وأنيس: المرجع السابق، ص3.

(22) الجبرتي: ا

(23) أنيس: المرجع السابق، ص34.

(24) عاصي: المرجع السابق، ص3.

(25) المرجع السابق، ج1، ص3-4.

(26) المرجع السابق، ص15-16.

(27) المرجع السابق، ص5.

(28) نفسه.

(29) نفسه.

(30) المرجع السابق، ص11-12.

(31) المرجع السابق، ص9-10.

(32) المرجع السابق، ص10.

(33) نفسه.

(34) المرجع السابق، ص5.

(35) المرجع السابق، ص553-554.

(36) المرجع السابق، ص554.

(37) لمزيد من التفاصيل، أنظر: أبو نحل، أسامة محمد: ظاهر العمر في فلسطين وعلي بك الكبير في مصر: دراسة تاريخية مقارنة. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 1991، ص111-113، 211-217.

(38) فولني: ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام. ترجمة: إدوار البستاني، ج1، منشورات دار المكشوف، دير القمر 1949، ص101، وأبو نحل: المرجع السابق، ص285-289.

(39) الجبرتي: المرجع السابق، ص546.

(40) المرجع السابق، ص73.

(41) المرجع السابق، ص84.

(42) المرجع السابق، ص10.

(43) نفسه.

(44) الجبرتي: المرجع السابق، ص19.

(45) المرجع السابق، ص20.

(46) المرجع السابق، ص36.

(47) المرجع السابق، ص288.

(48) المرجع السابق، ج2، ص394.

(49) المرجع السابق، ج3، ص4.

(50) المرجع السابق، ص227.

(51) الفستان: في التركية فستان بكسر الفاء، وتُطلق عند الأرناؤوط على ملحفةٍ واسعة كثيرة الطيات تُلف على الخصر وتصل إلى الركبة وهي ما تُعرف الآن بالجونلة أو التنورّة. وقد جمعها الجبرتي على فستانات.

سليمان، أحمد السعيد: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل. دار المعارف، القاهرة 1979، ص160.

[52] الحرفوش: هو ... س أو حرافشة وهم أحطّ طبقات الشعب.

دهمان: المرجع السابق، ص60–61.

[53] الجبرتي، المرجع السابق، ج3، ص230.

[54] المرجع السابق، ج4، ص454–455.

[55] المرجع السابق، ج1، ص8.

[56] المرجع السابق، ص66.

[57] المرجع السابق، ص10.

[58] نفسه.

[59] المرجع السابق، ص5.

[60] المرجع السابق، ص11.

[61] المرجع السابق، ص3، والزركلي: المرجع السابق، ج3، ص304.

<u>مراجع الدراسة</u>


(1) ابن الأثير، علي بن محمد: الكامل في التاريخ. ج1، دار صادر، بيروت 1982.

(2) أنيس، محمد (الدكتور): مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني. إصدار معهد الدراسات العربية، القاهرة 1962.

(3) البيطار، عبد الرازق: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج3، تحقيق: محمد بهجت البيطار، مجمع اللغة العربية، دمشق 1961.

(4) الجبرتي، عبد الرحمن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. 4 أجزاء، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، بدون تاريخ.

(5) الجبرتي، عبد الرحمن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. تحقيق وشرح: حسن محمد جوهر وآخرين، ط1، ج1، لجنة البيان العربي، القاهرة 1958.

(6) الحسيني، حسن بن عبد اللطيف: تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق وتقديم: سلامة صالح النعيمات، عمان 1985.

(7) الحلواني، سعد بدير (الدكتور): تأريخ التاريخ. مدخل إلى علم التاريخ ومناهج البحث فيه. ط2، أبها 1420هـ (1999م).

(8) دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط1، دار الفكر، دمشق 1410هـ. (1990م).

(9) روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983.

(10) الزركلي، خير الدين: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. 8 أجزاء، ج3، ط10، دار العلم للملايين، بيروت 1992.

(11) سليمان، أحمد السعيد (الدكتور): تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل. دار المعارف، القاهرة 1979.


دورية علمية محكمة نصف سنوية 5/4

(12) عاصي، حسين (الدكتور): عبد الرحمن الجبرتي. مؤرخ الصدام الحضاري الأول بين الشرق والغرب في العصر الحديث. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ (1993م).

(13) عبد الكريم، أحمد عزت (الدكتور) (مشرف): عبد الرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1976.

(14) فولني: ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام. ترجمة: إدوار البستاني، ج1، منشورات دار المكشوف، دير القمر 1949.

(15) أبو نحل، أسامة محمد (الدكتور): ظاهر العمر في فلسطين وعلي بك الكبير في مصر: دراسة تاريخية مقارنة. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 1991.